

تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط

د. موسى هواري

قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية

جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد

الله

الملخص:

يتناول هذا المقال عملية تخزين الحبوب في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، ويُبيّن أنّ هذه العملية كانت تُمارس من قبل الأفراد وحتى الدول التي تعاقبت على حكم المنطقة، ثمّ يتعرّض لأسباب اللّجوء إلى التّخزين، ويعالج بعد ذلك الطّرق التي كانت تتم بها العملية، وهي تُقسّم بحسب أماكن وضع الحبوب إلى ثلاثة أنواع؛ الأول تخزينها في حُفَرٍ بباطن الأرض تُسمّى "المطامير" (جمع مطمورة)، وهذا النّوع هو الأكثر انتشاراً، لصعوبة اكتشافه، كما أنّه يُمكن من حفظ كمياتٍ كبيرةٍ، لفترات طويلة، والثاني تخزينها في بيوتٍ تُبنى خصيصاً لهذا الغرض وتُسمّى بُيوت الأهراء، ويتركز هذا النوع في المغرب الأقصى أكثر من غيره، أما النّوع الثالث فهو خزنها في بعض الأواني بحيث يسهل نقلها وتغيير مكانها باستمرارٍ.

الكلمات المفتاحية: الحبوب، تخزين، القمح، المغرب، مطمورة، الأهراء.

Article Summary:

This article examines grain storage process in the Maghreb during the medieval period, it shows that this process was practiced by individuals and even nations that came to rule the area, and then exposed the reasons for resorting to storage, and handling after the storage methods that were carried out and which are divided into three types; the first storage method is to bury the grain in holes called "Matmura", this type is the most widespread because it is difficult to be found and it can store large amounts of grain for long periods, the second method is to store in houses specially built for

this purpose called the barns houses, this type is mostly concentrated in Morocco, the third and last type of grain storage is the use of pots which are easily transported.

key words : Grain, Storage, wheat, Maghreb, buried, barns.

مقدمة:

انتشر تخزين الغذاء بصفة عامة والحبوب بصفة خاصة، في العصر الوسيط بمختلف نواحي بلاد المغرب كغيرها من مناطق العالم الإسلامي⁽¹⁾، وهذا لأن المنطقة تعرف تذبذباً مناخياً تجود فيه السماء أعواماً، وتُمسِك أخرى، مما جعل إنتاج الغذاء متذبذباً هو الآخر، إذ يكثر محصول الحبوب في بعض الأعوام لدرجة أن أصحابه لا يجدون أين يجعلونه⁽²⁾، بينما يقل في سنوات أخرى حتى لا يكون هناك حصاد⁽³⁾، وقد عبّر ابن خلدون عن التغير في كمية الإنتاج بتغير السنوات بقوله: "...وليس صلاحُ الزرع وثمرته يُمستمر الوجود، ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقِلَّتْها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف، ويقل ويكثر، والزرع، والثمار، والضرع، على نسبته"⁽⁴⁾، والحل الوحيد الذي يضمن للناس البقاء في السنين العجاف -حسب نفس المؤلف- هو تخزين الطعام، والذي يُسمّيه الاحتكار، "...فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فعلاً الزرع، وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقوداً فشمل الناس الجوع"⁽⁵⁾.

لكنَّ التذبذب المناخي لم يكن السبب الوحيد لخزن الحبوب ببلاد المغرب، فهناك أسباب أخرى منها الاستعداد لأوقات الحروب، والاحتياط للفتن التي كانت تعرفها المنطقة من حين لآخر⁽⁶⁾، فالاضطرابات السياسية تتسبب في توقف الحياة الاقتصادية، بما فيها الزراعة بسبب حالة اللأمن التي تنتج عنها⁽⁷⁾، حيث يقبض الناس أيديهم عن الفلج (الزراعة) بسبب ما يقع من العدوان والفتن وكثرة الخوارج⁽⁸⁾، ويصبح الزرع المخزن هو المصدر الوحيد للعيش.

ويعدُّ التخزين من أوجه الاستعداد للحروب، وقد كانت رباطات الجهاد المنتشرة عبر سواحل المغرب تُجهز بمخازن الحبوب مثلما هو الحال مع رباط "المنستير الذي شيد في حدود سنة (180هـ/ 796م)، والذي كانت مخازنه مملوءة قمحاً وشعيراً"⁽⁹⁾، لكن هذه المخازن حُولت عن هدفها الأصلي الذي أنشئت لأجله

وصارت مخازن لبعض التجار، فأفتى الإمام المازري (ت. 536هـ / 1141م) بعدم جواز ذلك لأن هذه المخازن إنما خُبست على المرابطين⁽¹⁰⁾.

ومن أسباب اللجوء إلى التخزين أيضاً؛ الخوف على الغذاء من نهب اللصوص، أو حتى من مصادرة السلطة إذا كانت جائرة⁽¹¹⁾، مثلما حدث مع أهل مدينة فاس بالمغرب الأقصى، عندما سيطر عليها المغراويون الزناتيون في منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، حيث انعدمت الأقوات في المدينة وفي أعمالها، خاصة أيام حكم "الفتوح بن دوناس" (ت. 457هـ / 1065م) وابن عمه "معنصر" (ت. 460هـ / 1068م) وأيام ولد معنصر المسعّي "تميم" (ت. 461هـ / 1069م) وقد وصف ابن أبي زرع هذه الأيام فقال: "... فكان رؤساء "مغراوة" و"بني يفرن" يدخلون على الناس فيأخذون ما يجدون فيها من الطعام وفي أيام جورهم اشتد الجوع بالمغرب، فاتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم وديارهم للخزن والطحن والطبخ لئلا يسمعوا دوي الرحا"⁽¹²⁾.

ولم يكن خزن الحبوب ببلاد المغرب محصوراً على الأفراد، فمعظم الدول المتعاقبة على حكم المنطقة اتخذت مخازن تدّخر فيها الزّرع لأوقات الحاجة، وأولها الدولة الرستمية، التي اتخذ مؤسسها الأمير عبد الرحمن بن رستم (ت. 171هـ / 787م)، أهراً للطعام كان يأمر بإحصاء ما فيها إذا حان وقت الصدقات⁽¹³⁾، ويذكر ابن الصغير المالكي، أنّ الأمير الرّستمي أبا اليقظان محمد بن أفلح (ت. 281هـ / 894م) كان يجمع علف الدّواب في بيت المال⁽¹⁴⁾، ممّا يوحي بأنه اتخذ مخازن للعلف والحبوب في بيت المال.

وكان الخليفة الأول للدولة الفاطمية؛ عبيد الله المهدي (ت. 322هـ / 934م)، حريصاً على اتخاذ الأهراء لخزن الطعام عند بناء عاصمته الجديدة "المهدية" سنة 303هـ / 915م)، واعتبر ذلك من التحصينات الضرورية، ومن المرافق التي لا غنى للمدينة عنها⁽¹⁵⁾، وقد كان مصيباً في رأيه، حيث لعبت أهراء المهدية دوراً مهماً في صمود الدولة الفاطمية أمام ثورة الإباضي أبي يزيد بن مخلد المعروف بـ"صاحب الحمار" (ت. 336هـ / 947م)⁽¹⁶⁾، ولعلّ هذا ما جعل الفاطميين يُدركون أهمية مخازن الأقوات، ويعتنون بها عناية خاصة، حيث أنشأوا بعد انتقالهم إلى مصر ديواناً سموه "ديوان الأهراء"⁽¹⁷⁾، ولا شك أن فكرة هذا الديوان تبلورت في المغرب، وليس من المستبعد أنهم أنشأوا هذا الديوان في المهدية قبل انتقالهم إلى مصر.

واتخذ الموحدون أيضاً مخازن جمعوا فيها الأقوات فقد ذكر الحسن الوزان أنَّ الخليفة يعقوب المنصور الموحيدي (ت. 595هـ/1199م) "... اتخذ مخازن للحبوب يُوضَع فيها الشَّعِير للخليل والقمح للنَّاس"⁽¹⁸⁾، والمستفاد من هذا القول، إضافةً إلى ما ذكره ابن الصغير المالكي عن الأمير الرُّستمي أبي اليقظان الذي كان يجمع علف الدَّواب في بيت المال⁽¹⁹⁾، أنَّ مخازن الملوك كانت تضمُّ إلى جانب الحبوب التي تُدَّخَر ليقنات منها النَّاس، علف الدَّواب، حيث تزداد الحاجة إلى العلف في فترة الحرب أكثر من غيرها، لأنَّ الحيوانات تبذل مجهوداتٍ مضاعفةٍ، وتزيد الحاجة إلى قوَّتها ونشاطها، لهذا كان الأمراء يجمعونه استعداداً للحرب⁽²⁰⁾.

طرق التخزين:

اختلفت طُرُق تخزين الحبوب ببلاد المغرب باختلاف أماكنه، ويمكن حصر هذه الأخيرة في ثلاثة أنواع، الأول خَزْنُهَا في حُقَرٍ بباطن الأرض تُسمَّى "المطامير"، والثاني خَزْنُهَا في بيوتٍ تُبنى خِصيصاً لهذا الغرض وتُسمَّى بُيُوت الأهرء، والنَّوع الثالث هو خَزْنُهَا في بعض الأواني بحيث يَسهُلُ نقلُها ويسمَحُ بتغيير مكانها باستمرارٍ.

1- المطمورة:

المطمُورَةُ مفردٌ وجمعها مطاميرٌ؛ وهي حُقَرَةٌ تُحْفَرُ في الأرض خَفِيًّا، تُوسَّعُ أَسَافِلُهَا لَتُخْبَأَ فيها الحبوب⁽²¹⁾، وتبقى بداخلها بِكْرًا دون أن تَتَغَيَّرَ لَأَنَّ الهواء لا يُصَيِّبُهَا⁽²²⁾، والمطمورة لا تُحْفَرُ من أجل تخزين الحبوب لفتراتٍ قصيرةٍ كالأربعة أشهر والخمسة، بل لأكثر من ذلك بكثيرٍ⁽²³⁾، وذُكِرَت في المصادر بأسماء مختلفة، فهي تسمى أحيانا "الهَزِي وجمعه الأهرء"⁽²⁴⁾، وسماها ابن حوقل النصيبي بالمواجن، حين تحدث عن مدينة "سفاقس" الواقعة بإفريقية فقال: "وشرب أهلها من مواجل بها، ومَواجِنُهَا صَالِحَةُ الطَّعُومِ حَافِظَةٌ لما استودَعَتْ"⁽²⁵⁾، فجعل المواجل للماء والمواجن لتخزين الطعام، أما أبو زكريا الإباضي فقد قال في معرض حديثه عن أحد شيوخ المذهب الإباضي، ويسمَّى أبا أيوب بن كلابة الزواغي، "وبلغنا أنه نزلت به رفقةٌ ليمتاروا، ففتح لهم مطمورةً، وهو الجُبُّ..."⁽²⁶⁾، فاستعمل مصطلح المطمورة ثم شرحه فقال أنها تعني الجُبَّ، ويبقى مصطلح المطمورة هو الأكثر شيوعاً في المصادر.

والمطمورة ليست مجرد حُفرة تحفر في الأرض، فهي تَتَطَلَّبُ شيئاً من المعرفة، بحيث يكون فيها ضيقاً وأسفلها واسعاً⁽²⁷⁾، وهي تحتاج بعد الحفر إلى المعالجة، فطُيْنُ جُدْرانها أحياناً بالطِّينِ الممزوج بالشعير ودقاق التبن⁽²⁸⁾، وقد تبنى جدرانها الداخلية بالحجارة والطين الممزوج بالتبن، ثم يتم تمليط هذه الجدران من الدَّاخل⁽²⁹⁾، ولعلَّ هذا لا يكون إلا في حال كانت المطمورة في تربة غير متماسكة، فتلك التي حُفِرَتْ في أرضٍ صخرية صلبة، لا تحتاج إلى بناءٍ، وربما يُجعل في أسفل المطمورة تِئُنُ البُرِّ بارتفاع ذراعين، ويُجعلُ منه أيضاً، على جوانبها، وعلى فِمْبا بعد وضع الحبوب وقبل إغلاقها، ليحول التِّين بين الحَبِّ، وملامسة جوانب المطمورة⁽³⁰⁾، ولهذا احتاج حفر المطمورة إلى رجالٍ مهرة يتولَّون إنشائها، وقد تحدث ابن خلدون عن أناسٍ تخصصُّوا في هذا العمل وكانوا يفقدون حياتهم في حفرها أحياناً لنقص التهوية داخلها⁽³¹⁾.

ولحفر المطمورة في الأرض شُروطٌ؛ منها، أن تُختار التُّربة التي تُحفر فيها بعناية، فليست كلُّ التُّربة مناسبةً لتخزين الحبوب وحفظها، وقد فضَّل ابن العوام الإشبيلي، "الأرض البيضاء المُستَحْصَفَة"^(*) الجافَّة الباردة⁽³²⁾، وكان بعض أهل المغرب يَتَّخِذُونَ المطامير في الأرض الصَّخرية الصَّلْبَة، فالمتأملُ لحديث كلِّ من ابن الأثير والمقريزي، عن المهدي الفاطمي حين قالاً: "وَنَقَرَ في أرضها أَهْرَاءَ لِلطَّعَامِ"⁽³³⁾، يلاحظ أنَّهما استعمالاً لفظ: "النَّقَر" وليس "الحَفَر"، والنَّقَرُ ضربُ الحجر وغيره بالمنقار، وهو حديدة كالفأس⁽³⁴⁾، وهذا يُؤكِّد أنَّ مطامير مدينة المهدي حُفرت في أرضٍ صخرية، كما كانت مطامير مدينة "قسنطينة" محفورة في الصَّخر أيضاً، حيث يقول الإدريسي "...وأرضها كُلُّها حجرٌ صَلَدٌ، وفي كلِّ دارٍ منها مَطْمُورَتان وثلاث وأربع منقورة في الحَجَرِ"⁽³⁵⁾، وَخَصَّصَ أهل مدينة فاس القسم الشمالي من المدينة لحفر المطامير لأنه "...واقِعٌ في جبلٍ من حجرٍ كَلْبِي"⁽³⁶⁾، فكانت مطاميرهم أيضاً في أرضٍ صخرية، ويبدو أن التخزين في هذا النوع من الأرض كان أفضل من التخزين في غيرها وإلا لما تحملوا عناء الحفر فيها رغم صعوبته.

ويجب على الحافر بعد أن يختار التربة المناسبة للمطمورة، أن يختار مواضع حفرها، بحيث يجب أن لا تكون "...المواضع التي تُكَبِّسُ فيها الحنطة والشَّعير، بقرب رائحةٍ منتنةٍ أو شيءٍ يكون له رائحةٌ عفنةٌ، أو موضعٌ نديٌّ، أو اصطبيلٌ فيه دوابٌ أو جمالٌ أو غنمٌ، أو أحد الحيوانات التي تقوم في المواضع فتبول وتُبرع دائماً، فإنَّ روائح

هذه الحيوانات كلّها وسائر الحيوانات مع روائح أبوالها وأروائها تُضُرُّ بالحبوب كلّها مَضَرَّةً عظيمةً⁽³⁷⁾.

وتُتَّخَذُ المطامير عادةً في الحقول والأراضي الفلاحية⁽³⁸⁾، إذا توقّرت فيها بعض الشروط، كالتربة المناسبة والقدرة على مراقبتها وحمايتها من اللُصوص، وإن لم يستطيع الفلاح حفرها في أرضه استأذن غيره، واتخذ المطمورة في أرض الغير⁽³⁹⁾، لأنَّ المطمورة إذا أغلقت وغطّيت لا تُعيق مالك الأرض في عمله، ولكنَّ صاحبها كان يواجه مشكلةً في حال رَغِبَ في وضع الحَبِّ داخلها، أو استخراجِه منها، وصاحبُ الأرض قد حرث أرضه وزَرَعَهَا، فهو في هذه الحالة سيُؤذي الزَّرْع لا محالة، لأنَّه سيحتاج إلى أن يجوز إليها بدابةٍ أو أكثر، ومعه من يساعده في استخراج الحَبِّ وحمله، كما أنَّ عليه أن ينزع ما نبت عليها ليصل إليها، وهو يحتاج إلى موضعٍ قُرْبَ قَمَها يضع فيه الحَبِّ قبل تخزينه أو عند إخراجِه⁽⁴⁰⁾، وهذا يُضِرُّ بصاحب الأرض كثيراً، ويزداد الإضرار به إذا ما اختلط الأمر على صاحب المطمورة فنسي موضعها، أو إذا مات وجاء ورثته، أو غاب وجاء أولياؤه يبحثون عن المطمورة وهم لا يعرفون مكانها بالتحديد⁽⁴¹⁾، حيث يكون الحلَّ الوحيد، هو الحفر في الأماكن التي يشكون بوجود المطمورة فيها، فيفسدون أرض الغير بتكرار الحفر⁽⁴²⁾، وهذا الأمر لم يُجْزَ لهم بعض فقهاء الإباضية، لأنَّهم وإن كان لهم الحق في الحبِّ الذي في المطمورة، فليس لهم الحق في إيذاء صاحب الأرض⁽⁴³⁾.

واتخذ بعضهم مخازن الطعام داخل المنازل، فقد ذكر الإدريسي أن في كلّ دارٍ من ديار مدينة قسنطينة "... مطمورتان وثلاث وأربع..."⁽⁴⁴⁾، بينما قدَّر محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، عدد المطامير في مدينة "سبتة"، بأربعين ألف مطمورةٍ...مفترقةً بالديار وببعض الحوانيت⁽⁴⁵⁾، وهذا العدد الكبير مبالغٌ فيه بغير شكٍّ، ولكنه يعكس كثرة المطامير داخل الديار بهذه المدينة.

واعتبرت المطمورة التي تُحفر داخل الدَّار من منافعها، فهي تدخل في حقوق مُشتري الدَّار، أو مُكترِمها، إلا أن يشترط صاحبها في عقد الكراء استثناءها، ويحتفظ بحق استغلالها⁽⁴⁶⁾، وقد يحفر الرَّجل مطمورةً في دار غيره لِيُخَزِّن فيها حبوبه⁽⁴⁷⁾، وربما يرجع هذا لأنَّ التربة في داره غير مناسبة.

وَيُرَجَّحُ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ لِحَفْرِ مَخَازِنِ الزَّرْعِ دَاخِلَ الدِّيَارِ، هُوَ إِخْفَاؤُهَا وَالْقُدْرَةُ عَلَى حِمَايَتِهَا، حَيْثُ يَزِيدُ اللَّجْوُ إِلَى هَذَا النُّوعِ مِنَ الْمَطَامِيرِ عِنْدَمَا يَنْعَدَمُ الْأَمْنُ^(**)، مِثْلَمَا كَانَ الْحَالُ مَعَ أَهْلِ مَدِينَةِ فَاسَ زَمَنَ حُكْمِ الْمَغْرَاوِيِّينَ، يَقُولُ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ: "... وَفِي أَيَّامِ جُورِهِمْ اشْتَدَّ الْجُوعُ بِالْمَغْرِبِ، فَاتَّخَذَ أَهْلُ فَاسَ الْمَطَامِيرَ فِي بَيْوتِهِمْ وَدِيَارِهِمْ لِلخَزَنِ وَالطَّحْنِ وَالطَّبِيخِ..."⁽⁴⁸⁾، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَحْفَرُونَهَا فِي مَنَازِلِهِمْ حَتَّى أَصَابَهُمْ ظَلَمُ الْمَغْرَاوِيِّينَ.

أ-مدة الخزن في المطمورة: تتفاوت قيمة المطامير بحسب قدرتها على المحافظة على الحبوب داخلها لأطول مدّة دون أن تفسد، وقد اشتهرت بلاد المغرب أكثر من غيرها، بقدرتها أرضها على حفظ الطعام لفتراتٍ طويلةٍ، يقول ابن فضل الله العمري: "...بِلَادُ الْمَغْرِبِ^(***) مَخْصُوصَةٌ بِطُولِ مُكُثِّ الْمَخْزُونَاتِ بِهَا، فَإِنَّهُ رُبَّمَا بَقِيَ الْقَمْحُ وَالشَّعِيرُ فِي بَعْضِ أَمَاكِنِهَا سِتِّينَ سَنَةً لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يُسْوَسُ، ثُمَّ يُخْرَجُ بَعْدَ خَزَنِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ، فَيُزْرَعُ وَيَنْبُتُ، وَخُصُوصاً تَلْمَسَانِ فِي بَرِّ الْعُدُودِ"⁽⁴⁹⁾، وَمِنَ الْمَنَاطِقِ الَّتِي اشتهرت بطول مدة الخزن، مدينة "قسنطينة"، التي ذكر كلٌّ من الإدريسي والحميري أَنَّ الحنطة، "...تُقِيمُ فِي مَطَامِيرِهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا تَفْسُدُ ... لِتَرُدَّهَا وَاعْتِدَالِ هَوَائِهَا"⁽⁵⁰⁾، وَمِنْهَا أَيْضاً مَدِينَةُ فَاسَ، الَّتِي "تُحْفَظُ فِيهَا الْحُبُوبُ سَنِينَ عَدِيدَةً"⁽⁵¹⁾، أَمَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَاسِمِ السَّبْتِي أَنَّ الزَّرْعَ يَمُكُثُ فِي مَطَامِيرِهَا "...السِّتِّينَ سَنَةً؛ وَالسَّبْعِينَ سَنَةً وَلَا يَلْحَقُهُ تَغْيِيرٌ لَطِيبِ الْبُقْعَةِ وَاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَكَوْنِهَا جَبَلِيَّةً..."⁽⁵²⁾، وَالْمُسْتَنْتَجُ مِنْ كَلَامِ الْمَصَادِرِ هَذَا، هُوَ أَنَّ أَرْضَ بَعْضِ الْمَنَاطِقِ كَانَتْ تَحْفَظُ الْحُبُوبَ لِفَتَرَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَلَكِنَّهَا لَا تَصِلُ أَبَداً إِلَى الْمُدَّةِ الَّتِي ذَكَرَتْهَا هَذِهِ الْكِتَابَاتُ، لِأَنَّ التَّجَرِبَةَ أَثْبَتَتْ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمُثَالِيَةَ لِحَفْظِ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الْحُبُوبِ هِيَ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ، وَقَدْ تَطَوَّلَ لِأَعْوَامٍ قَلِيلَةٍ أُخْرَى تَبَعاً لِطَبِيعَةِ الْمَوَادِّ الْمُخَزَّنَةِ، وَنَوْعِيَةِ التَّرْبَةِ⁽⁵³⁾، فَالْحُبُوبُ الْمُحْفُوظَةُ فِي الْمَطَامِيرِ يُصِيبُهَا دَائِماً تَغْيِيرٌ، وَكَانَ النَّاسُ فِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ لِلطَّعَامِ الْمُخَزَّنِ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْجُزْءَ الَّذِي يَكُونُ فِي قَبِيعَانِ الْأَهْرَاءِ وَالْبُبُوتِ يَفْسُدُ لَا مَحَالَةَ⁽⁵⁴⁾، وَيَدُلُّ حَدِيثُ أَبِي زَكَرِيَاءَ الْإِبَاضِيِّ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي أَيُّوبَ الزَّوَاغِيِّ، الَّذِي سَأَلَ وَلَدَهُ عِنْدَمَا فَتَحَ الْمَطْمُورَةَ وَأَدْخَلَهُ فِيهَا: "مَاذَا فَعَلْتَ الْمَطْمُورَةَ يَا بَنِي؟ فَقَالَ الْغَلَامُ: حُسْنَتْ يَا أَبَتِي"⁽⁵⁵⁾، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَأكِّداً مِنْ سَلَامَةِ الْحَبِّ الْمَوْجُودِ دَاخِلِهَا.

كما أنّ القمح والشّعير إذا طالت مُدَّة خزنهما يتغيَّر لونهما وطعمهما⁽⁵⁶⁾، وقد أكد لنا الفلاحون الذين مارسوا عملية التخزين في المطامير بالجزائر، أنّ هذين النوعين إذا زادت مُدَّة تخزينهما عن الخمس سنواتٍ يتحوَّل طعمُهما نحو المرارة التي تزيد مع مرور السَّنوات، حتى تأبى الهائم أكلُهما، وهي نفس التصريحات التي جمعها العبدلاوي محمد من بعض المسنين بـجبال الريف بالمغرب الأقصى⁽⁵⁷⁾.

ب-مشاكل المطمورة: واجه الفلاحون الذين كانوا يُخزِّنُون محاصيلهم في المطامير بعض المشاكل، فمن المطامير ما كانت تُسَوِّس⁽⁵⁸⁾، وقد كان أصحابها يقومون بعض الأعمال لتطهيرها، كأن يتركوها مفتوحةً في الصيف بعد إفراغها بهدف التهوية والتَّشْمِيسُ، ويَتِمُّ في بعض الأحيان إحراق أنواعٍ من الأعشاب اليابسة داخلها، وذلك بهدف تعقيمها وقتل أو طرد الحشرات والجرذان⁽⁵⁹⁾.

ومن المشاكل أيضاً أنّ أصحاب المطامير اعتادوا أن يفتحوها ويتركوها بعد الفتح مدَّةً لتبرد، إذا أرادوا إخراج الحب منها، فيخرج منها الهواء الساخن ويدخل إليها الهواء البارد⁽⁶⁰⁾، وكثيراً ما يسقط فيها أناسٌ ويتأدَّون وربَّما يموت بعضهم⁽⁶¹⁾، وقد تقع فيها بعض الحيوانات وتموت⁽⁶²⁾، ممَّا يُدخل صاحب المطمورة في نزاعٍ مع مُلَّاك الحيوانات، وتزيد مشكلتهم تعقيداً إذا طال بقاء الحيوان الميت داخلها حتى يتعفَّن ويتحلَّل، حيث يؤدي إلى نجاسة الحب أو جزءٍ منه⁽⁶³⁾.

2- البيوت المخصصة لخزن الحبوب:

وهي بيوتٌ تُتخذ لحفظ القمح والشعير وسائر الحبوب، تُبنى من طابقين أو أكثر⁽⁶⁴⁾، فيُوضع الحب في الطوابق العلوية منها، وتُسمى عادةً بالمخازن أو الأهراء⁽⁶⁵⁾، وعرفت في مدينة سبتة باسم "الفنادق"⁽⁶⁶⁾، ويعتمد التخزين فيها -عكس التخزين في المطامير- على تعريض الحبوب المُخزَّنة للتهوية باستمرارٍ⁽⁶⁷⁾، حيث تُجعل لها نوافذٌ "... من جهة المشرق ومن جهة المغرب وعن يمين القبلة، ليرُضِّها ربح هذه النواحي فيذهب عما فيها من الطَّعام الآفات، ولا يكون لها من جهة الجنوب منها شيءٌ، لشدَّة ربح الجنوب"⁽⁶⁸⁾، ومن فوائد هذه النوافذ والفتحات أنها تسمح بدخول القطط وخروجها لمطاردة الجرذان، وتُطَيَّن جُدْرانها الدَّاخِلِيَّة بطينٍ يُخلط ببعض المواد مثل حَبَّات

الشعير أو الكبريت أو الرّماد⁽⁶⁹⁾، ويشتراط في بنائها أن يكون موقعها بعيداً عن الأفران والمطابخ، ومرباط الدّواب حتى لا يتأذى الحب بحرارتها⁽⁷⁰⁾.

ومن أشهر هذه المخازن التي ذكرتها المصادر، الهريان اللذان اتّخذهما الخليفة المنصور الموحيدي قرب أحد قصوره بمراكش، ليخزن فيهما أقوات الحاشية والجند، والشّعير الذي يُعلّفه لخيله، وقد وصفهما الحسن الوزان فقال: "هريان مبنيان كذلك بسقفٍ مُقَوّسٍ، وفي كلّ هري طبقةٌ علويةٌ، يُوضَع العلف في الطبقة الأرضية، ويُخزّن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيّل، ويُخزن القمح في الأخرى، وتُسَع كل طبقة أكثر من ثلاثين ألف كيل من الحبوب، وقد أُعدّت طاقاتٌ في سقف هاتين البنائيتين يُرقى إليهما بواسطة مدرجٍ من الحجر، تصعد فيه الدّواب محمّلةً إلى هذا السّطح، حيث يُكّال الحبُّ ثم يُصبُّ من هذه الطاقات، وإذا أُريد إخراج الحبِّ أُكتفي بفتح الثّقب الموجود في أسفل الهري، وهكذا يُمكن أخذ الحبِّ منهما ووضعهما فيهما دون عناءٍ"⁽⁷¹⁾.

ومن المخازن التي تحدّث عنها المصادر، الفندق الكبير المعدّ لاختزان الزرع في مدينة سبتة، والذي وصفه محمد بن القاسم الأنصاري السبتي فقال: "وهذا الفندق من بناء محمد أبي القاسم العزفي، ومن آثاره الغربية بسبتة، يحتوي على اثنين وخمسين مخزناً ما بين هري وبيت، تسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لا تبلغ الحصر، ومن ضخامته أنّ له بابين: بابٌ إلى صحنه والآخر إلى الشوارع المحمّلة الدائرة بالطبقة الثانية، لكون الأرض مرتفعةً من تلك الجهة، تُدخّل على البائنين الجمال بأحمالها مع الارتفاع والأتساع الكبير، فإذا أبصر الرّائي ما يدخّل منها على الباب الأعلى ودورانها في تلك الشوارع بأفتابها، وغرائر الزرع المحملة عليها هاله ذلك وتعجب منه"⁽⁷²⁾، والملاحظ على هذين البيتين هو أن كلاهما في المغرب الأقصى، ممّا يُرَجّح أنّ هذا النوع من التخزين كان معروفاً بهذه المنطقة أكثر من غيرها من جهات بلاد المغرب، كما يلاحظ أنّ طريقة وضع الحبوب داخل هذه المخازن وإخراجها منها متشابهة.

3- وسائل التخزين الأخرى:

كانت الحبوب تحفظ في مخازن وصفها العبدلاوي بغير الثابة⁽⁷³⁾، وهي المخازن المنقولة التي يمكن لصاحبها نقلها معه في ترحاله، أو في حالات الخوف، كما يُمكنه تغيير مكانها باستمرارٍ، وتتمثل أساساً في الأكياس المصنوعة من الجلود، والجرار والقُدور المصنوعة من الطين أو من مواد نباتية⁽⁷⁴⁾، وهي كثيرة وتختلف أشكالها وأحجامها باختلاف مناطق بلاد المغرب، لكنها في معظمها تكون أكبر من تلك المخصصة لحفظ السوائل أو نقل الماء.

ومن الأمور الطريفة في هذا الباب، ما ذكره صاحب كتاب "سير الأئمة وأخبارهم"، عن عامل الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، الذي طارد الرستميين الإباضيين بعد سقوط تاهرت سنة (296هـ/909م)، إلى وارجلان بالمغرب الأوسط، حيث وجد في ديارهم في هذه المنطقة بيض النعام مملوءةً شعيراً⁽⁷⁵⁾، وقد حمل هذا العامل بيضةً معه إلى إفريقية، وأراها للخليفة الفاطمي "المهدي" وقال له: "هذه مطايرهم"⁽⁷⁶⁾، مما يعني أن السكان تعودوا في هذه المنطقة أن يستغلوا بيض النعام في تخزين الحبوب.

لكن هذه الأدوات جميعها سواء أكانت قدوراً أو جراراً أو حتى بيض النعام، لك تكن تستعمل للتخزين لفترات طويلة، ولكن تُستعمل في التخزين المؤقت من أجل الاستهلاك، لأنها لا تستطيع أن تحمل كميات كبيرة ولكن من إيجابياتها إمكانية نقلها وتغيير أماكنها إذا اقتضت الضرورة.

خاتمة:

المستخلص في الأخير هو أنّ تخزين الحبوب باختلاف أنواعها كان ضرورة فرضتها على سكان المغرب في العصر الوسيط، الظروف المناخية التي يستمر فيها الجفاف أحياناً لسنواتٍ، كما أدّى إليها الخوف من الاضطرابات السياسية التي كانت تعرفها المنطقة من حين لآخر، وقد كان التخزين معتمداً من طرف الأفراد والدول على حدٍ سواء، وتنوعت وسائل التخزين وطرقه بين المطاير وهي الأكثر انتشاراً، فقد اشتهرت بعض المدن بكثرة مطايرها وطول فترة حفظها للحبوب، وبين البيوت المعدة خصيصاً لتخزين والتي كانت تسمى الأهراء، وهي أكثر انتشاراً في المغرب الأقصى،

إضافةً إلى المخازن المؤقتة والمنقولة، والتي كنت تخصص لكميات قليلة بهدف الاستهلاك اليومي.

الهوامش:

- (1) - حركات إبراهيم: النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت.ط.: المرجع السابق، ص. 78-79.
- (2) - القادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى المعروف بـ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبيعي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط. 2، 1997، : المصدر السابق، ص. 277-278.
- (3) - التسولي أبو الحسن علي بن عبد السلام: البهجة في شرح التحفة، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة 1418هـ/1998م، ج. 2، ص. 337؛ العبدلاوي محمد: تأملات في بعض طرق ووسائل الخزن التقليدية للمنتوجات الفلاحية بجبال الريف، مقال منشور ضمن: تحولات الأرياف في جبال الريف بالمغرب، مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المملكة المغربية، طبعة 1426هـ/2005م، ص. 88.
- (4) - تاريخ ابن خلدون المسعى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة 1421هـ/2000م، مج. 1، ص. 302.

(5) - نفسه.

(6) - العبدلاوي: المرجع السابق، ص. 88.

(7) - العروبي عبد الله: مجمّل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1996م، ج. 2، ص. 223.

(8) - ابن خلدون: المصدر السابق، مج. 1، ص. 302.

(9) - المازري أبو عبد الله محمد التميمي: فتاوى المازري، جمع وتحقيق الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، تونس، طبعة 1994م، ص. 188-189 : البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي: فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة 2002، ج. 5، ص. 422 وما بعدها.

(10) - المازري: المصدر السابق، ص. 188-189 : البرزلي: المصدر السابق، ج. 5، ص. 422 وما بعدها.

(11) - العبدلاوي: المرجع السابق، ص. 88.

(12) - الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، منشورات المنصور للطباعة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، طبعة 1972م، ص. 113-114.

(13) - المالكي ابن الصغير: ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميّين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م، ص. 33 : (الأهراء جمع الهُريّ وهو بيتٌ كبيرٌ ضَخْمٌ يُجْمَع فيه طعام السُلطان وهو يطلق على مخازن الزرع بصفة عامة. ابن منظور محمد بن مكرم: لسان العرب المحيطة، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.ط، مج. 3، ص. 801).

(14) - المصدر السابق، ص. 89.

(15) - ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1408هـ/1987م، مج. 6، ص. 489 : ابن خلدون: المصدر السابق، ج. 4، ص. 38 : المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي: إنعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، مؤسسة الأهرام جمهورية مصر العربية، القاهرة، الطبعة الثانية 1416هـ/1997م، الجزء الأول، ص. 71.

(16) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج. 6، ص. 489 : ابن خلدون: المصدر السابق، ج. 4، ص. 38 : المقرئزي:

المصدر السابق، ج. 1، ص. 79.

(17) - نفس المصدر، ج. 3، ص. 342.

(18) - وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983م، ج. 1، ص. 132-133.

(19) - المصدر السابق، ص. 89.

(20) - حول تليف الحيوانات ببلاد المغرب أنظر: موسى هوارى: تربية الحيوانات ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين (ق 1-7هـ/7-13م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط مخطوطة، اشراف د. محمد بن عميرة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2008-2009، ص. 124 وما بعدها.

- (21) - الحموي ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1995، مج. 5، ص. 148 : ابن منظور: المصدر السابق، ج. 4، ص. 502 .
- (22) - ابن العوام، أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الإشبيلي: كتاب الفلاحة، مدريد، طبعة 1802، ج. 1، 678-679 : النابلسي عبد الغني النقشبندي القادري: كتاب علم الملاحه في علم الفلاحة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1979م، ص. 257.
- (23) - الونشريسي أحمد بن يحيى: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حيي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، طبعة 1401هـ/1981م، ج. 9، ص. 108.
- (24) - ابن الأثير: المصدر السابق، 6، ص. 489 : ابن خلدون: المصدر السابق، ج. 4، ص. 38 : المقرئ: المصدر السابق، ج. 1، ص. 79.
- (25) - كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة 1979، ص. 73.
- (26) - كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1333هـ/1979م، ص. 132.
- (27) - ياقوت: المصدر السابق، مج. 5، ص. 148 : ابن منظور: المصدر السابق، ج. 4، ص. 502.
- (28) - قسطوس بن اسكولستكيه: كتاب الزرع، تحقيق بوراوي الطرابلسي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس 2010، ص. 95 : ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني: الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، منشورات المعهد العلمي للدراسات العربية بدمشق، دمشق 1993، ج. 1، ص. 429 : ابن العوام: المصدر السابق، ج. 2، ص. 333.
- (29) - العبدلاوي: المرجع السابق، ص. 89.
- (30) - قسطوس: المصدر السابق، ص. 95. ابن العوام: المصدر السابق، ج. 1، 678-679: النابلسي: المصدر السابق، ص. 257.
- (31) - المصدر السابق، ج. 1، ص. 36.
- (*) - اسْتَحْصَفَ الشيءُ اسْتَحْكَمَ، وكلُّ مُحْكَمٍ لَا خَلَلَ فِيهِ خَصِيفٌ (ابن منظور: المصدر السابق، ج. 9، ص. 48) والمقصود هنا الأرض المتماسكة الصلبة.
- (32) - ابن العوام: المصدر السابق، ج. 2، ص. 334.
- (33) - ابن الأثير: المصدر السابق، 6، ص. 489 : المقرئ: المصدر السابق، ج. 1، ص. 79.
- (34) - ابن منظور: المصدر السابق، ج. 5، ص. 227.
- (35) - الإدريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، طبعة 1422هـ/2002م، ج. 1، ص. 266 : (قارن ب: الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، مطابع دار السراج، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1980م، ص. 480-481).
- (36) - الوزان: المصدر السابق، ج. 1، ص. 248.
- (37) - ابن وحشية: المصدر السابق، ج. 1، ص. 429: (قارن ب: ابن العوام: المصدر السابق، ج. 2، ص. 333.

- (38) - الفرستائي أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي: القسمة وأصول الأرضين، تحقيق بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد بم صالح ناصر، المطبعة العربية غرداية الجزائر، الطبعة الثانية 1418هـ/1997م، ص. 326 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 10، ص. 85-86.
- (39) - الفرستائي: المصدر السابق، ص. 326-327 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 10، ص. 85-86.
- (40) - الفرستائي: المصدر السابق، ص. 326.
- (41) - الفرستائي: المصدر السابق، ص. 326 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 10، ص. 85-86.
- (42) - الفرستائي: المصدر السابق، ص. 326.
- (43) - نفسه.
- (44) - المصدر السابق، ج. 1، ص. 266 : (قارن بـ الحميري: المصدر السابق، ص. 480-481).
- (45) - اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية 1403هـ/1983م، ص. 42.
- (46) - البرزلي: المصدر السابق، ج. 3، ص. 627 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 10، ص. 412-413.
- (47) - الونشريسي: المصدر السابق، ج. 9، ص. 108.
- (**) - استغرب الفلاحون الجزائريون الذين عاصروا الخزن في المطامير، اتخاذها في الحقول والبساتين، واعتبروا ذلك مغامرةً وتفریطاً في المخزون، وقالوا أنها لا تكون إلا داخل الديار حيث تسهل حمايتها.
- (48) - ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص. 113-114.
- (***) - يستعمل العمري هنا لفظ بلاد المغرب للدلالة على المغرب والأندلس.
- (49) - مسالك الأيصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، طبعة 1424هـ/2003م، ج. 4، ص. 205-206.
- (50) - الإدريسي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 266 ؛ الحميري: المصدر السابق، ص. 480-481.
- (51) - الوزان: المصدر السابق، ج. 1، ص. 248.
- (52) - المصدر السابق، ص. 42.
- (53) - العبدلاوي: المرجع السابق، ص. 89.
- (54) - العبدري: المصدر السابق، ج. 7، ص. 230.
- (55) - المصدر السابق، ص. 132.
- (56) - قسطنوس: المصدر السابق، ص. 95.
- (57) - المرجع السابق، ص. 89.
- (58) - الونشريسي: المصدر السابق، ج. 6، ص. 230.
- (59) - العبدلاوي: المرجع السابق، ص. 89.
- (60) - أبو زكرياء الإباضي: المصدر السابق، ص. 132 ؛ البرزلي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 396 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 9، ص. 556-557.
- (61) - البرزلي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 396 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 9، ص. 556-557.
- (62) - البرزلي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 150 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 7-8.
- (63) - البرزلي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 150 ؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج. 1، ص. 7-8.
- (64) - السبتي: المصدر السابق، ص. 35 ؛ الوزان: المصدر السابق، ج. 1، ص. 132-133.

- (65) - السبتي: المصدر السابق، ص. 35 ؛ الوزن : المصدر السابق، ج. 1، ص. 132-133.
- (66) - السبتي: المصدر السابق، ص. 35.
- (67) - ابن العوام: المصدر السابق، ج. 1، 678-679 ؛ النابلسي: المصدر السابق، ص. 257.
- (68) - ابن العوام: المصدر السابق، ج. 1، 678-679 ؛ قارن بـ(قسطوس: المصدر السابق، ص. 93 ؛ النابلسي: المصدر السابق، ص. 257) ؛ ابن وحشية: المصدر السابق، ج. 1، ص. 428 ؛ ابن العوام: المصدر السابق، ج. 2، ص. 333 ؛ النابلسي: المصدر السابق، ص. 139-140 ؛ الحصري أديب عمر: مصباح الفلاح في الطب والزراعة وهو مختصر كتاب الفلاحة لرضي الدين الغزي، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، 1417هـ/1997م، ص. 97.
- (69) - قسطوس: المصدر السابق، ص. 93 ؛ الإشبيلي ابن حجاج أحمد بن محمد: المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1402هـ/1982م، ص. 16 ؛ أبو الخير الشجار الأندلسي: كتاب في الفلاحة، نشره التهامي الناصري الجعفري، المطبعة الجديدة، فاس، المغرب، طبعة 1357هـ، ص. 17 ؛، النابلسي: المصدر السابق، ص. 140.
- (70) - قسطوس: المصدر السابق، ص. 93 ؛ ابن حجاج: المصدر السابق، ص. 16 ؛ أبو الخير: المصدر السابق، ص. 17 ؛، النابلسي: المصدر السابق، ص. 140.
- (71) - المصدر السابق، ج. 1، ص. 133.
- (72) - المصدر السابق، ص. 35.
- (73) - المرجع السابق، ص. 96.
- (74) - نفسه.
- (75) - أبو زكرياء الإباضي: المصدر السابق، ص. 113-114.
- (76) - نفسه.